الشـــباب : منبع العطاء الفكري والأجتماعي

■ د. نوري جعفر ■

-١-

يختلف علماء النفس المعاصرون اختلافات كبيرة وكثيرة في تحديد سن الشباب وذلك بفعل اختلاف منطلقاتهم النظرية الفسلجية (الجسمية) والسايكولوجية (العقلية والانفعالية) التي هي في الاصل - من حيث المحتوى - اجتماعية النشأة بعد التحليل الدقيق . وعندي ان فترة الشباب تبدأ منذ بداية سن المراهقة - السنة الثالثة عشرة من العمر - وتنتهي عندما يبلغ الفرد عامه الخامس والثلاثين (اكثر او اقل بسنة او سنتين) .

حين يتبوأ مكانة خاصة ومتبلورة في المجتمع الذي يترعرع فيه وبخاصة في منطقتنا الجغرافية ووفق ظروفنا الأجتماعية السائدة .

-٢-

لقد أدى الشباب في الماضي ومازال يؤدي في الوقت الحاضر وسيبقى كذلك مابقي الأنسان على سطح الارض دورا ايجابيا فعالا في التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حصل في جميع الاقطار دون استثناء كما ان صراع النوع الانساني - في اقطاره المتعددة للتحرر من سيطرة الطبيعة (الجامدة والحية) ومن مفاسد المجتمع وحكم الطغاة هو ايضا - بعد التحليل الدقيق - ومن حيث الاساس صراع اجياله الفتية المتعاقبة .

- ٣ -

وقد ثبت - في مجال العلم والتكنولوجيا مثلا - ان فترة الشباب هي فترة الابتكار العلمي النظري والتكنولوجي على حد سواء . فلم يتجاوز كل من نيوتن وأينشتين ونيل بور وديراك عامه الخامس والعشرين عندما اكتشف الاول قوانين الطبيعة وبخاصة قانون سقوط الاجسام .

وتوصل كل واحد من الثلاثة الآخرين الى انجازاته العلمية النظرية الفذة في الفيزياء المعاصرة التي اهلته لنيل جائزة نوبل .

ولم يبلغ كل من جمس ودث ومكسويل عامه الثلاثين عندما اخترع الاول منهما الآلة البخارية وتوصل الثاني الى ارائه الاصيلة في الفيزياء النظرية .

ترى لماذا حصل ذلك وهو ضخم في هذه الفترة المبكرة نسبيا من الحياة وحصل امثاله وهو كثير ؟
ماهو العامل السايكولوجي الذي يكمن وراء ذلك ؟

يلوح : ان العامل السايكولوجي العميق الذي يكمن وراء ذلك كله هو ان الشاب بمستطاعه تعبئة جميع امكانياته الجسمية والفكرية والعاطفية عندما يأخذ على عاتقه بولع ذاتي انجاز عمل ذهني معين بعد المامه الواسع العميق به : تماما كما يفعل الهواة في مجال التربية البدنية . فالشباب - من هذه الزاوية - هم أكثر افراد للمجتمع نشاطا وابتكارا اذا احسن توجيههم وتوافرت لهم الظروف البيئية الملائمة وذلك بفعل خصائصهم السايكولوجية والفسلجية الشابة التي تدفعهم دائما وأبدا نحو تحقيق الافضل والارقى في العلم وفي الحياة الأجتماعية .

-٤-

وفي التراث العربي الاسلامي طائفة من الشبان اللامعين الذين تبوؤا مكانة اجتماعية مرموقة .

منهم - على سبيل التمثيل لاعلى سبيل الحصر : ان رسول الله ولى معاذ بن جبل اليمن وهو ابن ثماني عشرة سنة . وجعل اليه قبض الصدقات ومحاسبة العمال . وقلده الأحكام وتعليم الناس الأسلام . وعلى مثل ذلك عقد النبي الكريم لأسامة بن زبد الأمرة وابانه بالتقدمة على جلة الأنصار وكبار المهاجرين وخيار السلف . وعلى مثل ذلك ولى النبي عتاب بن أسيد مكة وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذود الأخطار من كل قبيلة وذوو الاسنان من كل جيل .

ويحدثنا التاريخ عن المكانة المرموقة التي بلغها خالد بن يزيد في السؤدد والمحبة وترد انجيوش العربية الاسلامية والهيبة وهو ابن خمس عشرة سنة .

ويحدثنا التاريخ ايضا عما بلغه محمد بن القاسم من الفتوح العظام والايام الجسام والقهر للاعداء وبلوغ المحبة في الاولياء وهو ابن خمس عشرة سنة .

وفي الجاهلية كانت العرب تتحاكم في النفوة وفي غير ذلك من المخابرة والمشاورة الى ابي جهل بن هشام في ايام حداثته وفتائه . ولذلك ادخلوه دار الندوة .

ودفع مع ذوي الأسنان والحنكة . ولذلك قال قحطبة بن سيار - حكيم فزارة - حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة : « عليكم بالحديد الذهن : الحديث السن » يعني ابا جهل .

وعندما ولي يحيى بن أكثم القضاء بالبصرة ولم تتجاوز سنه السادسة والعشرين » استصغره الناس . فسأله احدهم - معرضا به - كم سن القاضي ؟ نعم يحيى بن اكثم انه استصغره فقال :

« انا اكبر من عتاب بن اسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على اهل مكة يوم الفتح . وانا اكبر من معاذ بن جبل حين ارسله النبي صلوات الله وسلامه عليه قاضيا على اهل اليمن .

وانا أكبر من كعب بن سوار حين ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضيا على اهل البصرة » .

-٥-

ومن الجهة الثانية فان خصائص الشباب السايكولوجية والفسلجية كثيرا ما تؤدي به الى الانحراف واتخاذ مواقف سلبية ضارة به وبالمجتمع الذي يعيش فيه في المدى البعيد اذا اهمل توجيهه التوجيه الاجتماعي الصائب .

ولتجنب حدوث ذلك او درئه بعد حدوثه لابد من اعادة النظر في العلاقة بين الشباب والمجتمع : وهذه قضية اجتماعية معقدة ومستعصية الحل واجهها الانسان منذ اقدم العصور ومازالت قائمة الى اليوم وقد تبقى كذلك لفترة طويلة من الزمن . وهي من أكثر القضايا الأجتماعية الحاحا و« تجددا » !

واعادة النظر في العلاقة بين الشباب والمجتمع اعادة صائبة ومثمرة في المدى البعيد تستلزم - من بين امور اخرى كثيرة - الانطلاق من حقيقة كون الشاب هو ملك نفسه وملك المجتمع على حد سواء : شريطة ان لايتعسف المجتمع به وشريطة ايضا ان لايعزل نفسه عن قضايا مجتمعه الاساسية الآنية والملحة . والمجتمع بقدر مايحتمي بالشباب فانه يحميه أيضا . ولهذا فان تصرفات الشاب السلبية (بجميع اشكالها ومختلف درجات عنفها) مسألة تهم المجتمع بقدر ماتهم الشاب نفسه واسرته ايضا . ولابد من استئصالها عن طريق التربية وعن طريق الزجر ايضا .

والعلاقة المنشودة بين الشباب والمجتمع هي التي يتطهر فيها الشباب في المجتمع مع احتفاظه بمقدماته الأيجابية من ناحية والتي تتجسد فيها مطامح المجتمع في كيان الشباب من جهة أخرى : نحو المستقبل الافضل . ولتحقيق ذلك على افضل وجه لابد من وجود ثقة متبادلة واخذ وعطاء فكري بين الشباب والجيل القديم من حيث تبادل الخبرة والتوجيه الأجتماعي السديد .

- ٦ -

لعل ابرز المزايا المطلوب توافرها في الشباب الذي يختص بدراسة العلوم الطبيعية : الانفتاح الذهني منذ البداية والمثابرة على ذلك ليغرس في نفسه هذه الصفة اثناء اكتسابه المعرفة العلمية .

وعليه ايضا ان يتصف بالصبر والمثابرة والموضوعية والابتعاد عن عنعناته الشخصية وتخرصاته .

وان يتقن ابجديات العلم قبل محاولة التسلق الى قممه . وعليه ان لايبدء بدراسة موضوع جديد قبل اتقان الموضوع الذي سبقه وان لايملأ الفجوات العلمية التي تحصل عنده إلا بالحقائق العلمية . وعليه كذلك ان يدرس ويقارن ويجمع الحقائق التي هي مادته الاساسية . ولابد ايضا من التغلغل في اعماق الحقائق للكشف عن جوهرها .

ومن الجهة الثانية : فان جمع الحقائق وان كان شرطا مهماً من شروط العلم إلا انه لوحده او لا لكبِّرنه لالكبرته . فلابد من الكشف عن القوانين التي تتحكم في تلك الحقائق .

ولابد من الالتصاق بالتواضع امام العلم :

فلا يظن المرء انه يعرف كل شيء مهما كانت معرفته واسعة وعميقة : لان العلم كالمحيط المتطامي ليس له قرار ولاحدود ضيقة . والتواضع - امام العلم - يدفع صاحبه الى طلب المزيد والمساعدة ايضا من الآخرين .

وأخيرا على طالب العلم ان ينصرف للعلم انصرافا تاما ومطلقا لان العلم يتطلب حياة الشخص بأسرها . ولو كان للمرء ان يحيا حياتين فانهما غير كافيتين للأحاطة بموضوع ضيق من العلم ناهيك عن فروعه المتعددة : وان يتصف بالجلد والصبر والمثابرة .